الأنثروبولوجيا والاستعمار- قراءة في صورة الجزائرية في المؤلفات الأنثروبولوجية الاستعمارية

د/ أوراغي أحمد - جامعة تلمسان

1-الأنثروبولوجيا والمنظومة الكولونيالية:

تعد الأنثروبولوجيا حقولا دراسية اجتماعية تاريخية وثقافية، تمثل كل التماثلات المعاشية الفعلية منها والمرجوة لدى الجماعات، والتي يعبر عنها بطريقة شفوية أو سلوكية، والدراسة الأنثروبولوجية لأي شعب من الشعوب لا تعد قفزة في فراغ متقطع ولا جريا وراء سراب معرفي يشكل تصورا عشوائيا يرتطم بجدران معارف أخرى محيطة به أحيانا وبنفسه وتركيبته أحايين أخرى، لينطوي بذلك على رؤية أحادية غير مؤسسة على أي نوع من المرجعيات المعرفية/ العلمية، بل هي كل متكامل يأخذ من هذا وذاك وتبنى نظرتها الخاصة وتصوراتها المؤسسة على آليات الاشتغال الأنثروبولوجي، لتتلاقح وبقية العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

بيد أن الملاحظ على كثير من الدراسات الأنثروبولوجية التي اتخذت من الجزائر حقلا دراسيا لها أنها لم تخرج – في إطارها العام- عن مرجعية استشراقية نظر إليها – في كثير من الأحيان- كتكوين مقدس ومنظومة أيديولوجية وسوسيو ثقافية توخت تقديم نمادج ثقافية ومعرفية للأناسة الجزائرية وتقديمها بوجه جاف، مشوهة سلسلة رباطاتها الوجودية التاريخية والثقافية، عابثة بوحدة جذورها التاريخية العميقة، في شكل لا يستند إلى تأسيس علمي.

وهكذا تقبلنا في كثير من الأحيان تاريخنا الوجودي وسماته وأنماطه كما كتب عنه الآخرون دون تمحيص لم قدمه لنا المستشرقون، ولم نفد من الكشوفات الأركيولوجية وعلوم الفيلولوجيا والتي لم تخضع حتى الآن لدراسة أكاديمية مقارنة تعيد إظهار الحقائق وتزيل ما تراكم عنها من غبار الاستشراق وغبار الزمن وتعتيم الأيديولوجيا المركزية الاستشراقية، والتي قدمت لنا أنماطا وجودية وتاريخية وثقافية كما تشتهي هي وليس كما هو واقع الحال.

وهنا أضحى من الضروري بمكان دراسة البنية الميثولوجية والأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية/المعرفية للمجتمع الجزائري في تطوره التاريخي منذ عصور ما قبل التاريخ في تسلسل تاريخي ثيولوجي وثقافي، بغية التأسيس لأنثروبولوجيا معرفية وحضارية لوجودنا الزماني والمكاني، عبر وحدة الخيال والذاكرة الجمعيين، وبالتالي وحدة السيكولوجيا الجمعية، وصولا للتأسيس للهوية الناجزة تاريخيا بما يقدمه ذلك من ارتكاز متين لإنجاز مشروع نهضوي ثقافي/علمي/معرفي.

وذلك باعتبار أن الأنثروبولوجيا تعد "علما مهما وأساسيا يؤهل الباحث إلى إقامة حوار مع الذات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والأيديولوجية والعقائدية، ومعرفة كنهها وأسسها البنيوية ومنطقها الخاص بعيدا عن تلك الأطروحات العرقية

والإثنومركزية الضيقة، فالأنثروبولوجيا تزود الباحث بطاقات معرفية ومنهجية لدراسة الذات الشعبية وكيانها المحلي والوطني كذات فاعلة ومتفاعلة مع نفسها ومع محيطها ومع الآخر... فاعلة ومتفاعلة تفاعلا حرا ومتحررا من قيود الثقافات الضاغطة والتي سجنت الفكر المعاين للأنا وللأخر ضمن تلك الثنائية العنيفة والمدمرة والإقصائية والتي تأسس أصلا وفق المنطق الصراعي"1.

وعلى رأي حسن شحاتة سعفان فإننا لا نستطيع أن نفهم كثيرا من ظواهرنا ونظمنا وعاداتنا الاجتماعية وتقاليدنا إلا إذا رجعنا إلى علم الإنسان ليعيننا على فهمها وفهم أصولها وماذا طرأ عليها2.

حيث إن وبناءا على ماسبق، فقد أضحى من الضروري بمكان " إعادة إنتاج ميدان الأنثروبولوجيا، وذلك من خلال عملية معقدة وطويلة هدفها نفض الشروط التاريخية والمعرفية الاستعمارية المكونة له، بما هو أداة تعمل على استكشاف الأوليات التي تتحكم بالحركة التاريخية للمجتمعات الأخرى المسيطرة عليها"3

ولعل خوض غمار البحث النظري في مضمار الأنثروبولوجيا في الجزائر، إنما يبعثنا من صميم إشكالية "عادل فوزي" التي جعلها أساسا نظريا للمعطى الأنثروبولوجي للجزائر : "هل بإمكاننا حقا أن نصبح فاعلين في حقل الأنثروبولوجيا بعدما كنا موضوعا غرائبيا مدة من الزمن؟

وبأي ثمن؟ وماذا نفعل بالإرث المتراكم؟ هل سنرسل "الأعمال الكافرة" إلى محاكم التفتيش وبعدها إلى المحرقة، أو استخلاص الدروس والاستفادة منهجيا من جميع التحقيقات التي جرت حتى الآن، قائلين أن لا يمكننا اليوم طرح نفس الأسئلة التي طرحها من سبقونا"4.

ولعلنا وقبل الخوض في هذه الإشكالية نقف وقفة المتريث قبل استصدار حكم الإعدام أو صكوك للغفران ضد أو للمنظومة الاستشراقية، وبغض النظر عن الأيديولوجية التي حركتها صوب دراسة الأناسة الجزائرية، فإنها خطت الأسطر الأولى ووضعت أولى اللبنات النظرية والتطبيقية للأناسة المعرفية الجزائرية، ولازالت الأعمال الدراسية في هذا المضمار تتأسس وفق ما كتبه المستشرقون في هذا المجال.

وعليه فلابد، مراعاة لروح الموضوعية في الطرح، من "الاعتراف أنه بعد تجاوز عمليات توجيه اللغة بسهولة، والشتم الكسول، سنجد أعمالا ضخمة أثارت لوقت طويل طريق أجيال من الدارسين، مثل ج سارفيي (**J.Servier**)، تيون (**G.Tillon**)، أ.مسكيراي (**E. Mesgueray**)، لاوست (**E.laoust**)، بيرك (**J.Berque**)، بورديو (**P.Bordieu**). لا أحد يستطيع إنكار أن ج. سارفيي أوجد من خلال أعماله امتدادات عالمية للحضارة الزراعية في المغرب (**les portes de l'année**)، ولا إنكار أن ج.تيون (**G.Tillon**) استطاعت كشف ماهو أكثر ديمومة في بناء العائلة والقبيلة، والمقصود هنا هو الزواج الداخلي (**Le harem et les**

cousins)، ولا إنكار أن بورديو (**P.bordieu**) استطاع أن يضيء أواليات العنف الرمزي من خلال معالجة الشرف (**equise d'une théorie de la pratique**)"5.

كما لا يمكننا البتة إنكار ما قدمه المستشرقون – بعض النظر عن النية المبيتة سواء أكانت علمية أم كولونيالية- من دراسات في مجال الأناسة المعرفية في ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية خصوصا فيما يتعلق بالمعتقدات الشعبية فيما يخص الأضرحة والأولياء6، وكذلك ما قام به البعض في مجال جمع التراث الشعبي الأدبي، خصوصا منه الشعر الملحون7.

بيد أنه ومع أن الباحثين الغربيين قد قدموا خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين خدمات جلى في ميدان الأناسة المعرفية والاجتماعية الجزائرية، وذلك عن طريق تعمقهم في دراسة التراث الشعبي الجزائري عموما، إلا أن نظرتهم للأمور ظلت في غالبيتها مطبوعة بطابع غربي، إذ لم تستطع أن تسبر أغوار وأعماق الفكر لدى هذه الشعوب – أي الشعوب العربية عموما- لعدم قدرتها على تفهم كل ما يتضمنه التراث الشعبي من تجارب ورؤى وتصورات، بالإضافة إلى أن ظهرت فئة من الباحثين حاولت متعمدة إبراز كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بالشعب الجزائري خصوصا والعربي عموما8.

ويمكن اعتبار القرن الثامن عشر نقطة بداية مناسبة لدراسة الشعوب "البدائية"، فقد ازدادت المعلومات عن تلك الشعوب زيادة كبيرة نتيجة لتوسع الاستيطان الأوربي للأمريكيتين واستعمار الدول الأوربية لعدد كبير من الأقطار في إفريقيا وآسيا وأستراليا وغيرها من أرجاء العالم، وازداد تبعا لذلك اهتمام العلماء في أمريكا وأوربا بتلك الشعوب البدائية وكان المبشرون ورجال الإدارة ذوي ثقافة عالية في الغالب، فاستطاعوا أن يتحفوا العالم بدراسات رغم أنها لم تكن علمية فقد قدمت الكثير من المعلومات الدقيقة المفيدة فكانت خطوة فعالة في الدراسات الأنثروبولوجية9.

بيد أننا لا نجزم أن الأنثروبولوجيا الاستعمارية كانت بريئة من شطحات كولونيالية بحتة، مستخدمة العلم لخدمة الاستعمار الاستيطاني، بغية إدارك كنه الشعب والأرض حتى تسهل مهمة السيطرة عليه وكبح جماح مقاومته وإخماد أوراها، إذ اقترن البحث الأنثروبولوجي بالجزائر بالحركة الكولونيالية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك بغية الاتصال بالبنى العميقة للمجتمع الجزائري والتي من شأنها تمهيد وتهيئة وتسهيل المهمات العسكرية، فقد توصل المحتل إلى أن الاحتلال العسكري يجب أن تصحبه معرفة بالخصائص الجغرافية للأرض وكذا الأنماط الثقافية والاجتماعية والدينية المهيمنة على الأوساط الشعبية، فبدأ الاهتمام بالبحث في الإنسان الجزائري، وكان العسكريون الفرنسيون هم الأوائل الذين خاضوا حقل الدراسة الأنثروبولوجية بالجزائر، ولا زالت أعمال كوفيه

(**cauvet**) والإخوة مارسي (**Marcais**) وباسي (**Basset**)، وألفرد بال (**A.bell**) وغيرهم ... تشهد على ذلك الاهتمام الذي خصته الادارة الاستعمارية بالمجتمع الجزائري ومكوناته الإثنية والدينية وغيرها.

لقد ارتبطت الأنثروبولوجيا بالجزائر – لدى الكثير من الدارسين- بحركة المد الاستعماري الأوربي خصوصا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت الإدارات الأوروبية في حاجة إلى استكناه خصائص الشعوب التي يريدون احتلالها، أو كانوا قد احتلوها بالفعل، وذلك باعتبار أن الأنثروبولوجيا ليست مجرد نتاج فكري ولا نظريات أو أفكار متداولة عن الإنسان، بقدر ما هي رؤية شاملة ودقيقة للواقع الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه الإنسان بالإضافة إلى النظرة التي تقدمها عن مجموع القيم والأخلاق التي تسم أفكاره وسلوكاته، فإن الرؤى التي تقدمها عن هذا الإنسان ما هي في الواقع إلا انعكاسا للظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحيط بهذا الإنسان في موقفه داخل المجتمع وداخل الدولة"10.

والمستعمر كان دوما في حاجة إلى معرفة خصائص الشعوب التي وقعت نيره، سواء قبل الشروع العسكري أم أثناءه، فكانت تقارير الرحالة والمستكشفين أولى حلقات مشروع الآخر المحتل، كما رافقت الجيوش الغازية بعثات علمية كان الهدف الأساس منها تسليط ضوء البحث / الدرس على كل ما هو مجهول في الأنماط الحياتية والفكرية والعقائدية لهذا الآخر الذي ربما بدا غريبا في أنماطه المعيشية والثقافية والعقائدية وحتى تشريعاته القانونية والعرفية ونظمه الاقتصادية.

وقد تعارفت الدراسات المهتمة بتاريخ العلوم على اعتبار الأنثروبولوجيا علما استعماريا بحتا، إذ انبثق هذا العلم أول ما انبثق في رغبة "العالم المتحضر" (الغربي) في استكشاف الآخر "البدائي" (المتخلف)، أو الغريب عن الحضارة الغربية، والذي لا يزال يرزح تحت غياهب التوحش والبدائية.

لقد شكلت الأنثروبولوجيا منظومة معرفية تخدم النزعة الكولونيالية وأيديولوجيتها، بل إن ميلاد هذا العلم ارتبط ببداية حركة المد الاستعماري الأوربي بداية القرن التاسع عشر، ويمكن القول إن الأنثروبولوجيا قدمت خدمات "علمية" جليلة للإدارات الاستعمارية، إذ وضعت الشعوب المزمع احتلالها تحت منظار الادارة ترصد حركاتها وسكناتها، وتراقب أنماط حياتها وعاداتها السلوكية وقيمها الاجتماعية ونظمها الاقتصادية.

فقد أدركت الإدارات الاستعمارية أن البحث الأنثروبولوجي- لما له من قوة على اختراق المجتمعات وتحليلها بدقة – كفيل بتقديم ما ترغب في معرفته حول الآخر، وذلك لما يملك الباحث من آليات مساعدة أهمها معايشة تلك الشعوب ومساءلتها ومعرفتها معرفة عميقة بحكم التعايش والاحتكاك عن قرب.

وهكذا بدأ "الأنثروبولوجيون بدراسة الشعوب المستعمرة للتعرف على طبائعها وخصائصها والاستفادة من نتائج تلك الدراسات في إحكام السيطرة الاستعمارية عليها، بمعرفة مواطن الضعف في المجتمع ورسم السياسة المناسبة للتعامل معها أو لتعديل بعض الأوضاع لتصبح ملائمة لطبائع الشعوب، وبالتالي البقاء والاستمرار في استعمارها والسيطرة عليها"11.

ولما كان الأمر كذلك فقد عنيت الإدارات الاستعمارية بالأنثروبولوجيا وعلمائها أيما عناية، فبالإضافة إلى تسخير العلماء البحاثة لغايات استعمارية، فقد "خصصت لهذه الأنشطة العلمية الموجهة مراكز للبحث ودراسات ثقافات الشعوب، وأوكلت مهمة تنشيطها للأنثروبولوجيين المنضمين تحت رايتها وتحت لوائها وتحت سلطتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وذلك وفق رؤية أيديولوجية استعمارية ليست إلا، فكانوا يطعمونها بأبحاثهم وتقاريرهم الميدانية"12.

بيد أن الأمر لم يكن ليتوقف عند خدمة الأنثروبولوجيا –كعلم – للإستعمار – كظاهرة تاريخية- وحسب، بل إن الخدمة كانت متبادلة بين هذا وذاك، إذ "لا يمكن إنكار الخدمات المتبادلة بين الاستعمار والأنثروبولوجية، فكما قدمت الأنثروبولوجيا خدمات جليلة للحركة الاستعمارية، فلقد استفادت هي الأخرى من خدمات الحركات الاستعمارية، والتي كان لها أثر كبير في تقدم الدراسات والمناهج الأنثروبولوجية، فمن المعروف أن القرن 19 كان قرن التوسعات الاستعمارية بهدف استعمار المجتمعات البدائية من أجل إحكام السيطرة عليها واستغلالها سياسيا واقتصاديا وثقافيا ودينيا، ومن هنا نشطت الدراسات الأنثروبولوجية بأهدافها النظرية والتطبيقية متخذة من هذه المجتمعات الصغيرة مجالا لدراستها"13.

وبذلك يمكن القول إن الأنثروبولوجيا –كعلم- شكلت "لمدة من الزمن الموضوع الخصيب بامتياز للفكر الكولونيالي، والذي سخرها تسخيرا استعماريا، حيث انتشرت خارج أوربا الدراسات الفكلورية التي تهتم بقطاع الثقافة أو الحضارة، قبل وصول المظاهر الحضارية المقترنة بمرحلة التحديث الأوربية، وكان جزء كبير من هذا الاهتمام موجها –إضافة إلى الأهداف العلمية- لغايات استعمارية، وذلك للتحكم بعمليات التغيير الثقافي والاجتماعي من جهة ولتسخير العلوم الإنسانية لأغراضهم الاستعمارية هذه"14.

وتجمع جل الدراسات النظرية التي تناولت الأنثروبولوجيا كتاريخ علمي أنها نشأت بين أحضان المنظومة الاستعمارية، حيث استثمرت الآلية الكولونيالية هذا العلم بغية الإحاطة بعقلية الشعوب وأنماطها السلوكية والاعتقادية، إذ "سخرت المنظومة الكولونيالية الأنثروبولوجية وعلماءها لأغراض استعمارية بحتة، حيث تم استغلال واستثمار أبحاثهم من أجل معرفة عقلية الشعوب ومظاهرها الثقافية المادية والمعنوية والسلوكية. لقد تفطنت المنظومة الفكرية والسياسية الاستعمارية وأيديولوجيتها في وقت مبكر إلى الدور الريادي الذي يمكن أن يقوم به الأنثروبولوجيون، فعملت

الإدارات الاستعمارية على إرسالهم ضمن بعثات علمية أو إرادية أو دينية في مناطق مختلفة من العالم يدرسون ويسجلون ثقافتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ونظمها المعاشية الاقتصادية والاجتماعية والعرفية والعقائدية"15.

وهكذا ارتبطت نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية بالحركات الاستكشافية والاستعمارية وأصبحت دراسة المجتمعات الغربية –البدائية والأهلية– موضوعها الرئيسي، وفي هذا الصدد يذهب جيرارد لوكلارك (**G.Lclerc**) إلى أن القول "الأنثروبولوجيون أنفسهم يعترفون اليوم بأن اختصاصهم العلمي هذا يستمد موضوعه الفعلي من النزعة الامبريالية، ويستوحي منهجه من النظرة الاستعمارية، فأصبح الاهتمام بتلك الشعوب ووصف مؤسساتها الثقافية من أولوياتهم"16، وكذلك بات من المؤكد من الناحية التاريخية أن الأنثروبولوجيا "تطورت في الوقت نفسه الذي كانت فيه حركات الاستعمار تنتشر في أقاصي الكرة الأرضية"17.

والملاحظ أن هذه الحركات لم تكن تهدف إلى دراسة تلك الشعوب ووصف نمط حياتها والتعرف على أنساقها الثقافية، بل إن غرضها الأساسي كان استعبادها وإخضاعها لسيطرة الشعوب الاستعمارية الأوربية واعتبرت الأنثروبولوجيا آنذاك إحدى الوسائل الفنية لمساعدة الحاكم "على إدارة المجتمع الأهلي بأدنى حد من الاحتكاك والتوتر"18، فكانت إحدى استراتيجيات المستعمر لفهم ثقافة وسلوك الشعوب المستعمرة هي "استخدامه الخبراء الأنثروبولجيين وتعيينهم مستشارين في الادارات الحكومية للبلاد المستعمرة"19، فتمكنوا من معرفة أحوال تلك الشعوب، الاجتماعية والاقتصادية، ووقفوا على عقائدهم الدينية وممارستهم السحرية وأبدوا اهتماما كبيرا في وصف وتحليل عاداتهم وأعرافهم.

ومن الباحثين من يرى أن الأنثروبولوجيا الميدانية ظهرت إلى الوجود في فرنسا من مبادرات بعض الحكام الذين رغبوا في معرفة نمط حياة الشعوب الواقعة تحت هيمنتهم الاستعمارية، "وتعود المبادرة الأكثر أهمية إلى كلوزيل (**clozel**) الذي كان حاكما على إفريقيا الغربية الفرنسية في بداية هذا القرن (ق **20**)، فقد أسس سنة **1915** لجنة الدراسات التاريخية والعلمية لإفريقيا الغربية الفرنسية، وكان يطلب من مساعديه أن يطلعوه بشكل تفصيلي على الأنساق القانونية السودانية حينما كان يريد استبدالها بالقانون المدني"20.

وبهذا الشكل أدت الأنثروبولوجيا دور الخديم العلمي للمنظومة الكولونيالية ووجد المستعمر مبرره الأخلاقي في التقارير الأنثروبولوجية التي كانت تصور المجتمعات المغلوبة على أمرها على أنها متوحشة وغارقة في الجهل، وأنه يجب تهذيبها وتمدينها، ومن ذلك ما ذكره لويس رين (**Louis rinn**) حين يقول : "منذ خمسين سنة بذلت القوى الأوربية جهودا كبيرة لجذب المشرق القديم إلى تيار الحضارة الحديثة"21.

وهكذا وجدت الادارة المركزية الامبريالية ضالتها في علم الأنثروبولوجيا، فسخرت لخدمة أغراضها التوسعية، وجندت في سبيل ذلك ما تهيأ لها من كفاءات علمية وبحاثة ميدانيين بغية إعداد كشوفات دراسية عن الشعوب المستعمرة، وكانت التقارير الميدانية للأنثروبولوجيين بمثابة سبر لأغوار ثقافات هذه الشعوب ونظمها الحياتية المختلفة وبهذا انحرفت الأنثروبولوجيا عن مسارها المعرفي لتصبح أداة في يد الإدارات الاستعمارية تتيح لها معرفة هذا "الآخر" الذي كان يبدو غريبا وأحيانا بدائيا أو متوحشا.

ولم تكن الجزائر ببعد عن هذا الإنحراف المعرفي للأنثروبولوجيا، فقد كان الشعب الجزائري يحيا تحت منظار التقارير الميدانية للأنثروبولوجيين الكولونياليين الذين تصدوا لدراسة المجتمع الجزائري وأنماطه الحياتية ونظمه وتشريعاته، بغية تقديم صورة واضحة المعالم عنه حتى تسهل عملية انقياده وتطويعه، وبالتالي كبح جماح مقاومته، وأحيانا اهتمت الأنثروبولوجيا الاستعمارية بما من شأنه زعزعة وحدة الشعب، فضربته في أعماق هويته الناجزة تاريخيا حتى تفك رباطاته الإنتمائية التي كان يستمد منها قوة مقاومته ومعارضته لوجود محتل غريب على أرضه.

2- الأنثروبولوجيا العسكرية وبدايات اكتشاف الإنسان الجزائري:

ارتبطت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر في بداياتها الأولى بالعسكريين والضباط الميدانيين الذين شكلوا النواة الأولى للبحث الأنثروبولوجي في غياب علماء مختصين، فالمحتل الذي جاء غازيا لم يكن يعرف الكثير عن هذه الأرض ولا عن قاطنيها مما استوجب معرفة كل ما يحيط بوجود شعب له ما يميزه من أنماط حياتية وتشريعات ومعتقدات وفلكلور وغيره، ومن ثم أصبح لزاما أن يخوض العسكريون مهمة التنقيب الميداني لإماطة اللثام عن هوية هذا الشعب وخصوصياته الثقافية والاجتماعية.

فالمعرفة العلمية للجزائر – وكما وصفها لوكاس (**lucas**) وفاتان (**vatin**) كانت قبل كل شيء وظيفة الاحتلال، فقد بدأت مع العسكريين وبهم22، ويشير صاحب كتاب جزائر الأنثروبولوجيين إلى أن الاكتشاف العلمي للجزائري هو إذن قبل كل شيء متوقف على الاحتلال، وقد شرع فيه حقا بواسطة العسكريين وتعاظم في الميدان وفق وتيرتهم، بحيث يمكن أن تقتفي مع التفاوت الخفيف والضروري للتدوين والانطباع المراحل المتعاقبة للإستكشاف هذا، خصصت السنوات العشر الأولى بالأحرى للجزائر العاصمة والمدن المغزوة وضواحيها القريبة23.

فكان العسكريون أول من بدأ الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمع الجزائري الذي كان ينظر إليه على أنه تجمع هجين لطوائف وفئات اجتماعية مختلفة ومتباينة، منها العربي والبربري واليهودي، وبذلك فالجزائريون كانوا بالنسبة للأنثروبولوجيين الاستعماريين كما وصفهم تريميلي (**trumulet**) " يستحقون كل صفات الدناءة والخساسة والاحتقار"24.

فالفرنسيون لم يكونوا يعرفون عن الجزائر الشيء الكثير ذا الأهمية قبل الاحتلال، ولم تكن لديهم وثائق مدونة للأنماط الحياتية والاعتقادية والميولات الثقافية لهذا الشعب، اللهم مذكرات بعض هواة الكتابة الأدبية الذين رصدوا من خلالها عالما غريبا عن عالمهم، عالم مثير للدهشة والاستغراب حينا وللسخرية، وربما الاحتقار، أحايين أخرى.

وبعد مرور عقد من الزمن على نزول الجيوش، وبعد أن تم اختيار توسع عسكري بعينه، أقدمت الحكومة (الاستعمارية) على تحر **enquête** واسع النطاق، وقد تم جمع معطيات في قرابة أربعين مجلدا بين **1844 و1867**، وقد اضطلع العسكريون بنصيبهم في هذا التحري، وكان على رأسهم كاريت وبولوسيي **carette et pelissier**، وقد استدعيت التخصصات والعلوم كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمنية عن الأخر، أي هذا العربي أو هذا البربري، بما أنهم ينكرون عليه تسمية أخرى25.

ويذهب المؤرخ الفرنسي شارل أندير جوليان –في هذا الصدد- إلى أنه وإلى غاية سنة **1847** لم يكن بين أيدي السلطة المحتلة في الجزائر سوى تقريرين رسميين كان يمثلان أهم ما يمكن معرفته عن الجزائر26.

فلما وطئت أقدام المستعمر أرض الجزائر لم تكن لديها من المعرفة سوى أنها كانت بكل ابتذال أرضا تركية تصلح للاغتصاب27، وكانوا يتحدثون عن الجزائريين" تماما كما كان يفعل البحار الغربي مع سكان غينيا الجديدة أو مع الهنود"28.

ولما استشعر المستعمر ضرورة ومعرفة الآخر، لم يجد من يصلح لهذه المهمة سوى الجيش، وفي سنة **1837** قرر وزير الحرب البدء في استكشاف الجزائر علميا، ولكنه لم يجد على أرض الميدان سوى أفراد الجيش الذين أنجزوا عمل السوسيولوجيين والمؤرخين والألسنيين"29.

وبهذا سلمت الجزائر إلى هواة من ضباط الشؤون الأهلية وصغار المعلمين والرحالة والمبشرين الذين ارتجلوا علم الاجتماع، والذين لم يكن هدفهم البحث العلمي ف "لم يهتموا بإعداد ملفات وتقديمها كتقارير ... بل كانوا يقدمون انطباعات مرفوقة بآرائهم الشخصية"30، ولم يكن هناك ما يحثهم على الاجتهاد والتعمق، لأن ما هو سطحي عند الأهالي كان كافيا لهم لتفسير الأمور، وتقديم صورة حسبوها مكتملة المعالم حول حياة هذا الشعب وأنماطه السلوكية والاعتقادية.

ويقدم كتاب جزائر الأنثروبولوجيين أمثلة عن كتابات سطحية لعسكريين، لم تكن إلا وصفا شكليا بعيدا عن التعمق في أغوار حياة وثقافة الأهالي، فكتابات الملازم العام للشرطة أوبينوز –على سبيل المثال- لم تقدم عن طرائف عيش الجزائريين إلاّ "تفاصيل حول طرائق عيش السكان الحضر، وهي من وضع رجل لا يعرف

الجزائر إلاّ من خلال هذه الملفات التي انبثقت منها أول رؤية متناسقة للعلاقات بين وضع قطر والمنزلة التي يراد منها"31.

ويذهب بلقاسم بن زنين الذي قدم قراءة قيمة لكتاب جزائر الانثروبولوجيين إلى أنه وبغض النظر عن بعض أعمال العسكريين التي كانت عبارة عن مذكرات لم توجه بشكل مباشر لخدمة الاستعمار فقد كان من أول ثمار أعمال العسكريين كتاب الضابط **Merle** وعنوانه "طرق تاريخية وسياسية للإفادة في تاريخ غزو الجزائر سنة **1830** "طبع سنة **1831**، ثم أعيد طبعه سنة **1832**، وكتاب آخر للنقيب "روزت" (**Rozet**) الذي كان في نفس الوقت جغرافيا "رحلة إلى مدينة الجزائر أو وصف بلد محتل من طرف الاستعمار الفرنسي في إفريقيا "طبع في **1833** (3أجزاء) والملاحظ من هذه الكتابات الأولى أنها كانت مقتصرة على مدينة الجزائر، ثم سرعان ما توسعت فيما بعد لتشمل المناطق المجاورة خاصة متيجة التي كانت أراضيها الخصبة مطمع المستوطنين، ثم منطقة القبائل في مرحلة لاحقة باعتبارها تمثل خصوصية ثقافية متميزة وتنظيما اجتماعيا مغايرا لما وجده الفرنسيون في الجزائر العاصمة32.

وقد كان يروم الأنثروبولجيون العسكريون من خلال دراساتهم إلى التوصل إلى معرفة السكان من خلال الخوض في ثقافته المحلية، وذلك من أجل تسهيل عملية انقياده، وذلك ما يبرز من خلال تصريح أحد مهندسي الدراسات الأنثروبولوجية العسكرية التي قال بأنه "ينبغي الاستيلاء على روح هذا الشعب قبل الاستيلاء على جسده"33.

بيد أن العسكريين عجزوا عن الوصول والإحاطة بكل أبعاد الفعل الأنثروبولوجي الذي تشكل فيه العادات والمعتقدات والسلوكات الفردية والجماعية كلا متكاملا، كما قصروا عن الوصول إلى ما يلف الإنسان الجزائري من قيم ومثل عليا تمثل روح الشعب وكنه هويته الوجودية والثقافية.

فالكتابات الأنثروبولوجية للعسكريين الفرنسيين حول المجتمع الجزائري لم تكن سوى أوصاف انطباعية عادة ما اتسمت بالسطحية والسذاجة فقد تم بين سنوات **1844 و1867** وضع ما يقارب الأربعين مجلدا، جمع اغلبه العسكريون، وشاركهم جمعها غيرهم من الاثنولوجيين والأنثروبولوجيين، والمهتمين بالأنماط الثقافية المحلية، قدمت صورة مختلفة الأبعاد متشعبة زوايا النظر عن إنسان شمال إفريقيا العربي أو البربري الذي لم يكن يعرف له غير هذا الاسم34.

وبذلك شكلت دراسات الأنثروبولوجيين العسكريين – في عمومها الغالب – باستثناء البعض- أحكاما قبلية غير مؤسسة على أي مرجعية معرفية، وهذا راجع بالأساس إلى عدم اختصاص هؤلاء العسكريين في مجال البحث الأنثروبولوجي، وخوضهم غماره- كما يقول عبد الباقي الهرماسي – "صدفة"35.

فالعمل الأنثروبولوجي للعسكر – والذي أعقب الغزو مباشرة – لم يكن سوى تشويها للحقائق وتزويرا لما هو في واقع الحال، وذلك من خلال تقديمه للمجتمع الجزائري تقديما جافا، ووسمه إياه بالجمود والسلبية والاستسلام، وأحيانا عدة بالدناءة والخسة والحقارة، وبذلك كانت تقارير العسكريين بمثابة تبريرات أخلاقية لعملية غزو شعب بغية تخليصه من براثين التخلف، باعتباره شعبا ممزق التشكيلات الاجتماعية، شعب بلا تاريخ، وهكذا "لا يكون للغرب أية مسؤولية في جمود هذه المجتمعات، لأن هذه الحالة صادقة على التوسع الاستعماري"36.

ونشير في هذا المقام إلى أن المعرفة العلمية للجزائر لم تكن قد بلغت نضجها المعرفي والمنهجي في السنوات الأولى للغزو الاستعماري، وإنما تبدأ تلك المعرفة خصوصا بعد سنة **1848**، خصوصا بعد صدور أعمال لبحاثة وطنوا أنفسهم على البحث الإنسان الجزائري، وعلى رأسها "حوليات الجزائر" (**Annales algeriennes**) لبيليسي (**pelissier**)37 ، هذه الحوليات التي تعد بحق مرجعا نفيسا للبحوث المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية في الجزائر، ولا تزال المرجع الأكثر استعمالا للباحثين في المرحلة الاستعمارية"38.

لقد مثلت حوليات بيليسيي ورينو الجزائرية الإحصائيات الأولى المنتظمة، التي بفضلها يمكن استقاء المعلومات وصياغة استراتيجية الهيمنة النشطة التي ليست فقط أثرا بسيطا من آثار ضخامة الدولة الاستعمارية وإيمان الفرنسيين بقيمتهم، بل هي نتاج إرادة القوة التي تطول جميع جوانب المقاومة المحتملة التي قد تصدر عن الخصم، غير أن هذه الهيمنة لا تريد ولا تقوى أن تمارس في كل مكان وفي ذات الوقت والتي تزعم أولا بأنها غزو بالسلاح، لهذا ألفيت الضباط هم الذين يتهيبون من الخصم وقواته وضعفه وإمكاناته المادية والرجال والأسلحة وإمكاناته النظرية، أي المعتقدات والإيمان39.

فالسعي إلى حبس طاقات الوحدة معناه أولا معاينة المجموعات وتحالفاتها ونظام تحالفها وصراعاتها، ما هي يا ترى هذه القبائل التي يتحدث عنها؟ ما هو حيث الجماعات الدينية التي هي من القوة بحيث كاد النظام التركي أن يسقط تحت وقع ضرباتها؟ من هم هؤلاء السكان الجبليون القبائل الذين يأبون الانصياع للحكم الخارجي؟40

إن تراكم هذه الأسئلة وما تثيره من فضول "استراتيجي"، جعلت معرفة المحتل بالشعب والأرض قاصرة، مما أفرز ضرورة التصدي للأنماط الحياتية لهذا الشعب التي لم تكن معروفة لدى الآخر المستعمر، فكان لا مناص من مباشرة الجيش بدراسة هذا المجهول واستقصاء ما يلفه من معتقدات وأفكار وأنماط سلوكية وطقسية وغيرها، فالتزم الضباط أول الأمر للمهمات الاستكشافية التي كانت تزود الإدارة الاستعمارية بتقارير عن هذا الشعب، فتحولت آلة الغزو من بندقية إلى قلم، وأضحى الضابط منوطا بعمل المؤرخ والإثنولوجي وعلم الاجتماع والألسني ...41

فمهمة العسكريين كانت اكتشاف العدو، هذا الأخر المجهول، فكانت الإيديولوجية الكولونيالية هي التي تحرك روح البحث، ولم تكن الدراسات المنجزة سوى تتويجا لفضول المحتل، فضول غير بريئ البتة، إنه فضول الغالب لمعرفة خبايا المغلوب، نقاط قوته وضعفه والمداخل التي يمكن الولوج عبرها إلى تمزيق وحدة هذا الشعب وضربه في أعماق جذوره الانتمائية.

فمهمة الأنثروبولوجيا العسكرية في الجزائر –إبان عهد الاحتلال- لم تكن طرح وجهات نظر معرفية، ولم يكن الاكتشاف العلمي ما يبعث تلك النزعة الاستكشافية لديهم، فقد ساهمت تلك البحوث في تتويج السياسة الاستعمارية وإضفاء نوع من الشرعية تجاه سلوكاتها، من زوايا عدة، فهذا الشعب "المتوحش" يجب أن يروض، وأن يتعلم –ولو بالقوة- أبجديات التنوير الحضاري الغربي، وذلك باعتبار أن "الدهنيات المنغلقة تشكل حاجزا أمام تقدم هذه المجتمعات، والتعليم يجد صعوبة في الوصول إلى سكان هذه الأرض"42.

بيد أن هذا لا يعني أن بعض الأعمال لبعض العسكريين لم تكن مهمة من الناحية المعرفية فـ "على الرغم من أن الضباط الفرنسيين كان تكوينهم عسكريا، كما يقتضيه الأمر، إلا أنهم أسسوا مدخلا مهما في البحث الأنثرولولوجي الخاص بالجزائر، عرف بـ "الأنديجينوفيل" (**Indigénophilie**) وكذلك القبائلوفيلية (**Kabylophilie**)"43.

فالبحث الأنثروبولوجي للعسكريين شكل نقطة البدء للاستكشاف المعرفي للجزائر، ولا يمكن إنكار حجم المادة المعرفية التي قدمها العسكريون، والتي تناولت الإنسان الجزائري بالدراسة والبحث، ثم إن هذه الأبحاث تطورت منهجيا، بمرور الزمن فجسدت بذلك تطويرا ذاتيا لروح البحث الأنثروبولوجي في الجزائر.

كما أن هذه الأبحاث أصبحت أكثر دقة بعد أن كانت تتميز في انطلاقتها الأولى بالشمولية والمحلية، وكان أولى مظاهر هذا الاهتمام وضع عدة قواميس مثل القاموس الفرنسي الأمازيغي، الذي ألفه العقيد "لابان" (**Lapéne**) سنة **1837 44**.

لقد شكلت السنوات التالية للاحتلال بداية توجه معرفي مهم للأنثروبولوجيا العسكرية خصوصا "بعد إعلان وزير الحرب الفرنسي القيام بحملة استكشافية، كان من أبرز القائمين بها الضباط "كارت" (**Carette**)، رينو (**Reynaud**)، دوسلان (**Deslane**)، وبتوجيه من العقيد "سان فانسون" (**Bory de st vincent**)، انكب أعضاء اللجنة العلمية على إعداد جرد منهجي للبلاد في مختلف مجالات الطبيعيات والتاريخ وعلم الآثار والاثنوغرافيا، وشملت أعمالهم أيضا الترجمة التي كلف بها الضابط سلان"45.

هذا الضابط (**De slane**) "دوسلان، الذي كان من أصل ايرلندي، وكان يعد من أشهر المستعربين الأوربيين، اهتم بالترجمة، ومن أعماله الكبرى ترجمته لمقدمه ابن خلدون، التي عدت –كما سبقت الإشارة إلى ذلك- مرجعا أساسيا في البحث

الأنثروبولوجي الاستعماري، وقد تمت هذه الترجمة بفترة وجيزة قبل تحرك الآلة العسكرية الفرنسية نحو الجزائر.

كما أن حوليات بوليسيي ورينو الجزائرية **(Les annales algeriennes)** كانت تمثل الاحصائيات الأولى المنتظمة التي بفضلها يمكن استقاء المعلومات وصياغة استراتيجية الهيمنة النشطة التي ليست فقط أثرا بسيطا من آثار ضخامة الدولة الاستعمارية وإيمان الفرنسيين بقيمتهم، بل هي نتاج إرادة القوة التي تطول جميع جوانب المقاومة المحتملة التي تصدر عن الخصم، غير أن هذه الهيمنة لا تريد ولا تقوى أن تمارس في كل مكان وفي ذات الوقت، والتي تزعم أولا أنها غزو بالسلاح، لهذا ألقيت الضباط الذين هم يتهيبون من الخصم وقواته وضعفه وإمكاناته المادية والرجال والأسلحة وإمكاناته النظرية أي المعتقدات والإيمان، إن السعي إلى جس طاقات الوحدة معناه أولا معاينة المجموعات وتحالفاتها ونظام تحالفها وصراعاتها46.

وهكذا شرع الضباط السامون ومن هم دونهم شأنا في تقديم الأجوبة الأولى47، أجوبة كانت في شكل تقارير ومدونات لضباط عاينوا التجمعات القبلية والإثنية في الجزائر وقدموا ما عاينوه في قالب دراسي، بيد أن الهدف منه كان واضحا وجليا، وهو معرفة نقاط قوة وضعف هذا الأخر "العدو" المثير للدهشة، والريبة والحذر.

وإذا كانت الأنثروبولوجيا العسكرية قد انتقلت من "الإستراتيجية" إلى "التكتيك" فإنها تحولت فيما بعد إلى البحث في أدق التفاصيل التي تخص السكان وقادتهم الذين رفعوا لواء المقاومة، تلك المقاومة التي كان لها أثرها البالغ في ظهور المزيد من الأعمال، خاصة وأن بعضا من هؤلاء العسكريين أصبحوا مقربين من قادة المقاومة ورؤساء القبائل حتى أننا نجد أن الأمير عبد القادر يسم أحد كتب "ليون روش" (Leon roches) بمقدمة يشيد فيها بأعماله48.

هذا الضابط الذي كان مترجما في الجيش الفرنسي، تم اتصل بالمقاومة الشعبية للأمير عبد القادر وكان من مقربيه، وقد أثيرت عديد من الشكوك حوله وحول حقيقة وجوده بين ظهراني المقاومة، وبالتالي طبيعة المهمة التي كان منوطا بها حينئذ49.

وإذا كان البعض قد دعا –ولا يزال البعض الآخر يدعو- إلى إعادة قراءة الأعمال الأنثروبولوجية العسكرية، من خلال منهجية علمية تتفق والشروط الاجتماعية والثقافية للتطور الذي أعقب فترة الغزو الفرنسي، وإلا فإن مضامين هذه الأعمال سوف تكون مضلة للبحث ومشوهة للحقائق من خلال الصورة السلبية التي تقدمها عن الإنسان الجزائري وتجعلها لصيقة به، وهو (أي الإنسان الجزائري أو الأنديجان حسب تعبير الأنثروبولوجيا الاستعمارية) لا يعدو أن يكون إنسانا جامدا، كسولا، مستسلما، خاضعا دنيئا ... وهي نظرة لا تعدو كونها وليدة الأيديولوجيا الاستعمارية وإدارتها المركزية التي كانت في رحلة بحث لتبرير أخلاقي لما تقوم به إزاء الشعب والأرض.

فإن هذا لا يمكن أن يكون ذر رماد في الأعين وعملية اتهام صارخ دون روية في استصدار أحكام بحق "الأعمال الكافرة" –كما وصفها عادل فوزي- وإرسالها إلى محاكم التفتيش ومن ثم عرضها إلى المحرقة وإعدامها بتهمة الخيانة المعرفية.
ف "عمل هؤلاء الضباط متجليا في عشرات المؤلفات، قد أسهم في شكل لا يمكن إنكاره أو إغفاله في التأسيس للمعرفة الأنثروبولوجية في إحدى أهم فترات التاريخ الجزائري. وهذه الأعمال تكتسي أهميتها أيضا من كونها تمثل على المستوى الابستمولوجي دعوة إلى الخروج من سبات دغمائي وأيديولوجي ... إنها دعوة لتصويب الحركة التاريخية في اختلاف وتشابك مراحلها، وفي محاولة تجميع لن تكون موحدة ولكن مختلفة"50.

بيد أن هذا الموقف لا يعني أيضا أن ننظر إلى تلك الأعمال كتكوين معرفي مقدس وكمرجع دراسي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، بل إنه يتوجب على الباحث الأنثروبولوجي اليوم أن يتمتع بروح النقد والتحليل واستقصاء الحقائق التي كثيرا ما طمست في تلك الأعمال، فهي أعمال لها ما لها وعليها ما عليها، أعمال أسست مدخلا منهجيا للدرس الأنثروبولوجي في الجزائر حقيقة، لكنها كانت تحمل – ضمنيا- في طياتها أيديولوجية استشراقية سعت إلى تشويه الرباطات الوجودية للإنسان الجزائري وقدمته بصورة لا تختلف البتة عن الصورة التي رسمها الرحالة والمستكشفون الأوربيون عن الإنسان الأصلي للعالم الجديد المكتشف أو إنسان الأدغال الأفريقية.

الهوامش:

1-محمد سعيدي الأنثروبولوجيابين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر، أطروحة دكتوراه في الأنثرولولوجيا، جامعة ابو بكر بلقايد-تلمسان-كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2007-2006، ص 05

2-أنظر: حسن شحاتة سعفان: علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات مكتبة العرفان، بيروت، 1966، ص03.

3-محمد حسن دكروب : الأنثروبولوجية، الذاكرة والمعاش، دار الحقيقة، بيروت، لبنان، ط2، 1991:ص09

4-عادل فوزي: إشكالية، ترجمة : عنصر العياشي، وقائع الملتقى، أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، تيميمون: 22-23-24 نوفمبر 1999، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ص14

5-المرجع السابق ص14

6-أنظر مثلا

:-cauvet M Las marabouts, petits monuments funairaires et votifs du nord de l'afique,revue
africaine, n°64,annee 1923
-Edmond douté : Notes sur l'islam maghribin, ernest laroux , editeur,paris,1990.
-louis rinnM Marabouts Klouans

7-أنظر: -سونك : الديوان المغربي في أقوال عرب شمال إفريقيا والمغرب، للنشر، الجزائر، 1991.
-إيدمون يافيل: مجموعات الأغاني والألحان من كلام الأندلس، الجزائر، 1904
-إيدمون يافيل: مجموع زهو الأنيس المختص بالتباسي والقواد س، الجزائر، 1907

8-مصطفى أوشاطر: الأسطورة في التراث الشعبي الجزائري، رسالة دكتوراه الدولة في الأدب الشعبي، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية،2002-2003، ص03

9-أنظر: -حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبلوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2003، ص47
10-بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، (مخطوط)، رسالة ماجستير في الأنثروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2000-2001، ص02
11-وسام العثمان: المدخل إلى الأنثروبولوجيا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2002 1،ص18.
12-محمد سعيدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق،ص34.
13-المرجع نفسه، ص34.
14-المرجع نفسه، ص04
15-المرجع السابق، ص33
16Gerard Leclerc: Anthropologie et colonialisme, Fayard, Paris,1972, P202
17Michel Leiris: cinq etudes d'anthropologie, gouthier, Paris, 1969, P33
18-لنشن رالف: الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة: عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1967، ص34
19-المرجع نفسه
20Gerard Leclerc: op . cit P45
21Louis Rinn: Marabouts et khouanes, etudes sur l'islam en algérie, Adolphe jourdan libraire- editeur, alger, p07
22-راجع:
philippe lucas et jean claude vatin: l'algeriedes anthropologues, maspéro, paris, 1982, P13
23-فيليب لوكا- جان كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، ترجمة د.محمد يحياتن – بشير بولفراق- وردة لبنان، منشورات الذكرى الأربعين للإستقلال، الجزائر، 2002، ص 09-10
24- بن زنين بلقاسم: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص20.
25-جزائر الأنثروبولوجيين، ص 09
26-راجع: شارل أندريه جوليان: تاريخ الجزائر المعاصرة، باريس 1964، ص56
27P.Lucas et j.c Vatin, op cit, P11
28Ibid, P 11
29Benjamin STORA : Histoire de l'algerie colonial (1830-1945) ENALE, Houma, Alger, 1996, P18
30P. LUCAS et J.C VATIN, op.cit, P 11
31- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 09
32- الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 19-20
33-أنظر:
- EL Baki HERMASI: Etat et société au maghreb, edition anthropoide, Paris, 1975, P70
34P.LUCAS et J.C VATIN, op.cit,P13
35EL Baki HERMASI, op.cit, p27
36M.DAUMAS et M.FABER : La grande Kabyle, etude historique, Paris, 1847, P12
37راجع :
E.PELISSIER: Annales Algeriennes (7 Tomes), Paris, 1836
38- الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 21
39- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 11
40- المرجع نفسه، ص 12
41- راجع في هذا الصدد:-
Charles TAILART: L'algerie dans la littérature française, champion, paris, 1925, p 222-253

- P.LUCAS et J.C VATIN, op. cit, P 12

42- Ibid, p 31
43- الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 20
44- بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 21
45- المرجع السابق، ص 21
46- جزائر الأنثروبولوجيين، ص 11-12
47- المرجع نفسه، ص 12
48-بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 24 (بتصرف)
49-ينظر: يوسف مناصرية : ليون، في الجزائر والمغرب (1847-1832)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
50-بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، ص 28